جمال الدين الأفغـاني

للمؤلف
مصطفي محمد رمضان

الوضع في العالم الأسلامي عند ظهور الأفغاني :

كان العالم الأسلامى قد أفزعته فى القرن ١٩ أشباح الطمع الأستعمارى فى أراضيه التى كانت تقترب منه شيئا فشيئا ، وما كاد ينتصف القرن (١٩م) حتى تبدل الحال تبدلا تاما ففتح الفرنسيون الجزائر واستولت روسيا على أراضى شاسعة عبر القوقاز ووسط آسيا وبسطت بريطانيا نفوذها على الهند وأحكمت قبضتها على منافذ العالم الأسلامى فتحكمت فى مدخل البحر الأحمر باستيلائها على عدن فى سنة ١٨٣٩ م وأفغانستان في ذات السنة ، وكذلك مدخل الخليج العربى ومضيق(ملقا) فى جنوب شرقي آسيا .

كان هذا سببا كافيا جعل المسلمين يدركون أن الأسلام مهدد بالخطر الفادح والبلاء الشامل بسبب انتشار سيطرة الغرب المسيحى عليه ، فازدادت حاجتهم الى التماسك ، وقوى لديهم الشعور بالترابط بعد طول تفرق ، وأضحى التضامن الأسلامى أمرا ملحا لمقاومة الغرب وصده وايقاف أطماعه .

وبدأ العالم الأسلامى يغلى غليان المرجل على النار فأفرز هذا الغليان (جمال الدين الأفغانى) ، الذى ولد فى أسد آباد بايران فى سنة ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م) وتوفي عام١٨٩٧م ودفن في اسلامبول عاصمة الدولة العثمانية فيمر هذا العام على وفاته مائة عام ، واسمه محمد بن صفدر (*) ، وشهدت طفولته وصباه أشباح الطمع الأستعمارى فى ايران وأفغانستان وعاش فترة شبابه وشهد آثار اليأس المدمر الذى اصاب نفوس المسلمين عقب هيمنة الأستعمار على مقدراتهم .

وقد عني والده بتربيته وتعليمه في الثامنة من عمره ، فحفظ القرآن وتلقى معارف عصره ما بين عربية وشرعية وعقلية وفنية وطبية ، واستكمل الغاية من دروسه وهو دون العشرين من عمره .

(*) صفدر لفظ فارسى من ألقاب الأمام على ، مركب من كلمة (صف) العربية و (در) وصف من فعل دريدان الفارسى بمعنى أفترس أو اقتحم فيكون معنى صفدر : مقتحم الصف .

واختلف الناس فى أمره هل هو أفغانى كما قدم نفسه لهم أم أنه ايرانى كما ذهب البعض .

ولكن الشيخ(محمد عبده) يقول أن السيد جمال الدين وان كان فى الحقيقة فارسيا ، فقد انتسب الى الأفغان لأمرين :

١.أن يكون من السهل عليه الظهور بمظهر السنى لا الشيعى .

٢.أن يستطيع الخلاص من رقابة الحكومة الايرانية (١)لرعاياها فى الخارج .

الا أنه جعل ديار الاسلام كلها وطنه ولم يرد أن يرتبط ببلد معين ولكنه ارتبط بمبدأ معين وهو وحدة العالم الاسلامي وساح في أقطار الأرض من أجله ، ولم تدخل فكرة الوطنية الضيقة ولا القومية مذهبه السياسي .

وسافر بعد ذلك الى الهند فأقام سنه وبضعة أشهر يدرس العلوم الحديثة على الطريقة الأوربية فنضج فكره واتسعت مداركه ، وبدأ يدرك فوائد الرحلات لأستطلاع أحوال الأمم والجماعات ، فسافر الي الحجاز لأداء فريضة الحج وقضى سنة يتنقل في الحجاز يتعرف على احوالها وعادات أهلها حتى وافى مكة المكرمة سنة ١٨٥٧م (١٢٧٣هـ) وأدى فريضة الحج .

وعاد الى بلاد الأفغان فعمل فى حكومتها ثم ما لبثت أعاصير السياسة والدسائس الأنجليزية أن عصفت بالبلاد لتفريق الكلمة ودس الدسائس في بلاد الأفغان . فألجأته مرة أخرى الى الهند بعد خلاف شب بين أمراء الأفغان في سنة ١٨٦٩م .

ولكن بعد شهر أوجست حكومة الهند منه خيفة فأخرجته من سواحل الهند الى السويس فجاء الى مصر فى المرة الأولى في أوائل عام ١٨٧٠م (١) وأقام بها أربعين يوما تردد فى خلالها على الجامع الأزهر وتعرف خلالها على الشيخ محمد عبده ،فكان لقاء جمال الدين به أهم حادث في تربية محمد عبده كما يبدو من تاريخه .

---

(١) مقدمة الشيخ محمد عبده لكتاب الرد على الدهريين .

(١) يذكر ابن أخت جمال الدين لطف الله في مذكراته التي نشرها مترجمة من الفارسية الى العربية : أن الافغاني أتى الى مص في المرة الأولى سنة ١٨٦٩م بينما يرى عبد الرحمن الرافعي أن ذلك كان في أوائل عام ١٨٧٠م
انظر: عبد الرحمن الرافعي ،عصر اسما عيل ج ٢ ص١٣٠، الطبعة الثانية

ثم ذهب الى اسلامبول عاصمة(الدولة العثمانية) سنة ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) ولقي السلطان عبد العزيز ، واتصل هناك برجال الأدب والفكر ، وأصبح عضوا فى مجلس المعارف فكان صريحا فى نصحه كعادته وأشار الى طرق للاصلاح وتعميم المعارف لم يوافقه عليها شيخ الأسلام وثار عليه مشايخ السلطة الذين يزينون الباطل للحكام ، يومئذ حتى صدر الأمر بإخراجه من البلاد ، وكان فيه من الشمم والاباء ما صرفه عن أن يطأطئ الرأس ويقيم على الضيم ونصحه بعض خلصائه بالذهاب الى مصر.

الأفغاني في مصر:

جاءالأفغاني الى مصر للمرة الثانية سنة ١٢٨٨هـ في مارس(١٨٧١م) وكان ذلك زمن الخديو اسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩م) فتعرف على رياض باشا أحد الوزراء فحبب اليه الاقامة في مصر ورتب له راتبا سنويا مقداره ١٢٠ جنيها . فاستقر بها ثمانية أعوام . وكان وقتها فى الثالثة والثلاثين من عمره .

والسبب في أختياره لمصر أن حرية الفكر بها أوسع من غيرها ، فقد كان الأزهر يومئذ كعبة العلم تشد اليه الرحال ، وكانت به أروقة لكل الأجناس من العالم الأسلامي وكان لهؤلاء الوافدين الى الأزهر الحرية الكاملة في الأنتساب الى المذهب الفقهي الذي يريدون دراسته بالأزهر في أحد المذاهب الأربعة لأهل السنة والجماعة (الشافعي والحنبلي والمالكي والحنفي) ، وهذه الحرية الفكرية والتعددية المذهبية هى التي جعلت العالم الأسلامي يدفع بطلائع مثقفيه الى الأزهر دون حرج أو خوف من تعصب مذهبي وكان الكل يتلقى تعليمه على أصول مذهبه ، هذا بخلاف المعاهد والمدارس في المغرب العربي وغرب أفريقيا التي تتعصب للمذهب المالكي دون سواه ، وفي الأناضول والشام يتعصبون للمذهب الحنفي ، وفي اليمن يتعصبون للمذهب الزيدي ، وفي السعودية للمذهب الحنبلي ، ولذالك برز دور الأزهر في الحياة العلمية والثقافية الأسلامية وأخذ صفة عالمية بسبب هذه الحرية الفكرية التي شاعت في حلقاته الدراسية .

وكان هذا التسامح المذهبي من العوامل التي دفعت جمال الدين الأفغاني للاستقرار في مصر ، الا أنه كان حذرا من الأحتكاك بعلماء الأزهر في حلقات الأزهر العلمية ، خوفا من أن تتكرر عملية الأصتدام بالعلماء كما حدث له في تركيا ، فكان لا يذهب الى الأزهر الا يوم الجمعة لأداء صلاة الجمعة ، وجعل من بيته مدرسة لتلاميذه .

وكانت فترة اقامته فى مصر من أكثر أدوار حياته خصبا ، فقد جعل من منزله فى خان الخليلى جامعة حره خالية من أى روتين رسمى يمزج العلم فيها بأفكاره السياسية الحرة ، وجاء أهل العلم والفضل يهرعون اليه ، يقتبسون من نور علمه وحكمته ، ويستمعون الى أحاديثه وما فيها من غذاء العقل والروح ،والحث على الأنفة وعزة النفس .

وحاول تعبئة تلاميذه ضد النفوذ الأجنبى والحكام المستبدين وكانت له قدرة فائقة على الخطابة الجياشة بالعواطف الملتهبة بالايمان لتحريك وجدان المسلمين .وكانت كلماته تنفذ الى أعماق قلب من يخاطبه وكانت له شخصية جذابة فلا يمل أحد من الاستماع الي أحاديثه .

وكان الوضع فى مصر ينتقل من سيىء الى أسوأ منذ عام ١٨٧١م فقد حل الظلم بالناس ، ولا رقيب على أعمال الحكومة حتى مجلس شورى النواب كان مسيرا بيد الحكومة ، لا تترك فيه كلمة لحر يعترض على سياستها ، فكانت هذه الأحداث حافزا له على الدخول فى غمارها كل ذلك هيأ الوسائل لمواهب رجل أوتي حظا عظيما من سمو النفس ،ومتانة الخلق وتوقد الذكاء ، وقوة الذاكرة ، ودقة الملاحظة الى علم غزير ونشاط لايكل وشجاعة لاتعرف الخوف .

فجمع حوله محمد عبده ومحمود سامى البارودى وعبد السلام المويلحى وسعد زغلول وابراهيم المويلحى ، وعلى مظهر وأديب اسحق وعبد الكريم سلمان وحسن عبد الرازق وغيرهم .

والجديد في دعوته أنه جمع في حلقته المسلم والمسيحي واليهودي فكان بحلقته (أديب اسحق) المسيحي الشامي الذي نصحه الأفغاني باصدار جريدتي (مصر)و(التجارة) التي كان يكتب فيهما هو وتلاميذه وكانت مقالاته لشدتها يكتبها تحت اسم مستعار هو (﴿مظهر بن وضاح) وكان منهم يعقوب صنوع اليهودي الذي أصدر بتوجيه الأفغاني جريدة (أبو نضارة) وكان هدف الأفغاني من جمع هؤلاء حوله أن يكونوا مع جماعة المسلمين ضد المستعمر لا أن يكونوا طابورا خامسا في وسط المسلمين يستفيد منهم المستعمر .

وتزامن مجئ الأفغاني الى مصر ،والأمة الأسلامية تعاني من أمراض شتى أهمها : (١) مرض الفرقة ،(٢) فساد نظام الحكم ،فوهب جمال الدين عمره لمناهضة الأمرين معا ،سعى الى ايقاظ الشعور بالوحدة الأسلامية باعادة الجسم الذي مزقه الأستعمار الى قطع وأوصال كل منها ينبض بنبض مختلف وجاهد في اعادة الأوصال الى بعضها لكي تنبض نبضا متحدا وتشعر بشعور واحد وقت الأزمات .

مصداقا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام :((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٤) يقول الأفغاني عن رسالته التي اختطها لنفسه في حياته ومضى ينفذها كالأعصار لا يعرف التراجع ولا الخوف ولا الرهبة :

((لقد جمعت ما تفرق من الفكر ولممت شعث التصور ونظرت الى الشرق وأهله ...وما آل اليه أمرهم ...فخصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه ،فوجدت اقتل أدوائه داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم ،واختلافهم على الاتحاد ،واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغربي المحدق بهم)).

فكان مثل المؤذن الذي يوقظ النيام بعد ضجعة ليل طويل ، فكان يقول :

١.كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه وفي أذنه وقر؟
٢.أي جهوري من الأصوات يوقظ الراقدين؟
٣.كيف تبعث الهمم بعد موتها؟
٤.هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم؟
٥.ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير؟
٦.هل من صيحة تقرع قلوب الاجساد المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة؟

وكان أساس النهوض للشرق الأسلامي عنده هو :

١.خلاصه من سلطان الأجنبي الذي يحكم مستعينا بنظريته المعروفة لدينا جميعا وهي : فرق تسد .
٢.خلاصه من الحكم الأستبدادي والعودة الى نظام الشورى الأسلامي الذي أهمله المسلمون .
٣.تمسكه بنوع من الوحدة والتضامن الذي يقوي فكرة التناصر بين شعوبه ويكفل لها الغلبة على اعدائها .

ولم يكن يهدف من دروسه التعليم فحسب بل كان يهدف من ورائها الدعوة للاصلاح والتبصير بالشئون السياسية وحقوق الشعب ، فعلم الأدباء أن الأدب يجب أن يكون فى خدمة الشعب لا فى خدمة الحاكم ، يطالب بحقوق الشعب ويدفع الظلم عنه ، ويبصر الناس بمن كان سبب فقرهم ، ويحرضهم على أن يخرجوا من الظلمات الى النور ، وألا يخشوا بأس الحاكم فليست قوته الا بهم ولا غناه الا منهم ، وأن يكافحوا فى طلب حقوقهم المغصوبة وسعادتهم المسلوبة ، وبذلك خلق فى الأدباء روحا جديدة تنظر الى الشعب أكثر مما تنظر الى الحكام ، وباختصار جعل الأديب مشرفا وموجها للأمراء ، لا سائلا يمد يده للأغنياء .

وكان الأفغاني جريئا في حرية الأفكار الى درجة متناهية فكان يحض المصريين بلهجة شديدة على المطالبة بحقوقهم والتنصل من ربقة الظلم ،فقد وقف يوما سنة ١٨٧٩م في ساحة محمد علي المعروفة بالمنشية الكبرى في الأسكندرية وخاطب الفلاح المصري على مسمع من محافظ المدينة وقواد الجيش والعلماء والأعيان قائلا :((أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق ويقوم بأود العيال ،فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟لماذا لا تشق قلوب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟)) وكان السامعون ينظر بعضهم الى بعض في دهشة ،لأنهم لم يسمعوا في حياتهم مثل هذا الكلام [1] فكانت ترتعد من قوة شجاعته وبيانه فرائص الحاضرين .

ومن هذا ،المعين الحر الصافي شربت النهضة الديموقراطية والسياسية ،ووجدت مبادؤ حكيم الشرق وتعاليمه سبيلا الى النفوس فكانت من العوامل الهامة في ظهور هذه النهضة التي شغلت السنوات الأخيرة من عهد الخديوي اسماعيل وظهرت روح المعارضة واليقظة في مجلس شورى النواب على يد نواب نفخ فيهم الأفغاني من روحه وعلى

رأسهم (عبد السلام المويلحي)زعيم المعارضة بالمجلس الذي أنشأه اسماعيل للزينة، وعند مناقشات المويلحي في المجلس كانت تظهر الصلة الروحية بينهما من الكلمات والعبارات الحرة التي كان المويلحي يجهر بها في جلسات مجلس شورى النواب ،فقد كانت هذه الروح من آثار ارشاد الحكيم الأفغاني٠

النظام البرلماني من وحي الحكمة الاسلامية:

وكانت فلسفة الأفغاني السياسية من وحي الحكمة الاسلامية الخالدة فالنظام البرلماني الحديث في نظره ماهو الا نظام الشورى الاسلامية ،فليست الشورى الاسلامية في نظره الا بداية للنظام النيابي أحسنت صياغته في العصر الحديث ،وكان لا يرى سبيلا لتحقيق العدالة الا اذا شارك الشعب حاكمه في كليات السياسة ومسئولية الوزارة بنواب منتخبين عنهم ٠

---

[1] فيليب طراري-تاريخ الصحافة العربية ج٢ ص٢٩٥ ٠

ولذلك فان الأفغاني كان يرى أنه لاأمل في اصلاح نظم الحكم الفاسدة في العالم الاسلامي الا بحتمية الحل الديمقرطي ، فمن أقواله في تلاميذه :

((لاتحيا مصر ولايحيا الشرق بدوله واماراته الا اذا أتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا ، يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان ، ولاعدل الا مع القوة المقيدة ، وحكم مصر بأهلها انما أعني به :(الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح)) [1]

وكان العالم الاسلامي في ذلك الوقت (ومازال)جميع نظم الحكم فيه غيردستورية وغير ديمقراطية ، والسبب في ذلك أن الفقهاء لم يضعوا نظاما محكما وثابتا لانتقال السلطة من حاكم الى آخر على الرغم من أنهم توسعوا في وضع أبوب في الفقه في العبادات والمعاملات توسعا مذهلا لدرجة أنهم كانوا يفترضون بعض المسائل التي يمكن أن تقع في المستقبل ، أما في مجال نظام الحكم فانهم أهملوا تنظيم انتقال السلطة من حاكم الى آخر ، في الوقت الذي كانت فيه أوربا على مقربة منهم قد نظمت انتقال السلطة سواء كان النظام جمهوريا أم ملكيا فان انتقال السلطة يتم بهدوء طبقا لقواعد دستورية تم ضبطها بقوانين مرعية ،ويحكمون صناديق الانتخاب ، أما في العالم الاسلامي فتنتقل السلطة بالقوة والحكم لمن غلب ، وبسبب ذلك تقوم الحروب التي تحدث الدمار الشامل الى أن يستقر الوضع للاقوى .

فوجه الأفغاني همه الى توعية الناس بحقوقهم الدستورية والديمقراطية وضرورة وضع نظم دستورية لحكم العالم الاسلامي ونبذ الحكم الاستبدادي ، والقضاء على الحكام الذين يجمعون في أيديهم كل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ، وأ نه آن الأوان في العالم الاسلامي للفصل بين هذه السلطات الثلاث .

[1] الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ،جمع محمد عمارة ، ص ٤٧٧، منقولة من كتاب "خاطرات جمال الدين الأفغاني "

ومما يوضح مدى الأثر الذي أحدثه الحكيم الأفغاني في تطور الوعي السياسي والديمقراطي في مصر هو ما قاله تلميذه الامام محمد عبده في وصف حال مصر قبل مجئ جمال الدين الأفغاني اليها ،((ان أهالي مصر قبله كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب ارادته ،

ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله ،أو خيانته وظلمه ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه في ادارة بلاده ، أو ارادة يتقدم بها الى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ،ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم)) [1]

فلما جاء جمال الدين الى مصر كون حوله جماعة من الشباب والشيوخ وحبب اليهم الكتابة ورسم لهم خطتها ،وشجعهم على انشاء الجرائد ليكتب فيها هو ومدرسته من رجال الصحافة وشيوخ الأزهر .

وبذلك ظهرت آثار جمال الدين الأفغاني وآثار مريديه في جريدتي (مصر) و(التجارة)فظهر شأنه وطار صيته وعظم نفوذه . ويجدر بنا أن نقدم نموذجا من هذه المقالات التي كان يكتبها الحكيم الأفغاني حتى نعلم مدى هذه الجرأة الجديدة والتعاليم غير المعهودة التي بثها الأفغاني في الروح المصرية حتى أنتجت نهضتها وأيقظتها من رقادها . وقد نشرت له جريدة (مصر) مقالا ناريا بعنوان (الحكومة الأستبدادية)تحدث فيه الأفغاني عن الاستبداد في الدول الشرقية ،وذكر مزايا النظام الجمهوري وأن الشعب فيه أعلى شأنا وأرفع مكانة من سائر أفراد الانسان بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون من عداهم فان الانسان الحقيقي هو الذي لا يحكم عليه سوى القانون الحق المؤسس على دعائم العدل .

---

[1] محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الأمام محمد عبده ، ج١ ص٣٦ .

ثم تحدث عن الحكام المستبدين وشبههم بقطاع الطرق فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة ويسلبهم أموالهم ومئونتهم ولا يلاحظ فيهم الهرم والصغير والعاجز والضعيف ولا تأخذه في ذلك الشفقة والرحمة ،كذلك هؤلاء يغتصبون ضياع رعاياهم وعقاراتهم ويستولون على مساكنهم وينتزعون بالضرب والحبس والكي وغيرها من أنواع العذاب ما بأيديهم من ثمرات اكتسابهم ويدعونهم في مخالب المصائب معرضين للأسقام والآلام . (١)

ثم يقول مؤنبا الحاكم المستبد في جرأة نادرة ((أتريد أن تظلمنا ونكافئك بالشكر ،وتغصب حقوقنا ونجازيك بالثناء أو تظن أنك تقدر أن تغر كل العالم وتعمى بصائرهم ،وأن تنزل باطلك عندهم منزلة الحق٠٠ولعلك اغتررت بتمجيد المتملقين وتعظيم المتبصبصين وتبجيل المتزلفين أمامك ويحك لو كنت تعلم مقامك في النفوس ومنزلتك لدى أرباب البصائر والعقول لو دعت هذه الدنيا الخسيسة التي ألهتك٠

ثم يخاطب المحكومين من أبناء الشرق في مرارة بالغة فيقول:((واما أنتم يا أبناء الشرق فلا أخاطبكم ولا أذكرنكم بواجباتكم فانكم قد ألفتم الذل ورضيتم بالمعيشة الدنيئة واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف وصرتم كالعجائز لا تقدرون على الدرء والاقدام والجلب والدفع والمنع والرفع فانا لله وانا اليه راجعون)) (٢)

وأغلب الصحف السياسية التي صدرت في مصر ظهرت في آواخر عصر اسماعيل ، وأغلب الظن أن هذا كان بتأثير تعاليم الأفغاني

مصر مهيأة لأفكار الأفغاني :

الواقع أن البيئة التي نهض بها (جمال الدين)كما سبق كانت مستعدة للرقي صالحة لغرس بذور اليقظة الأسلامية ،فقد كان بها الأزهر كعبة العلم والوطنية وكان بها المعاهد العلمية الحديثة ،والتقدم العلمي الذي ابتدأ منذ عهد محمد علي وأينعت ثماره في عهد اسماعيل

---

(١)جريدة (مصر) عدد٣٣ (الجمعة ١٤فبراير)١٨٧٩.
(٢)المصدر السابق بنفس المكان ٠

وأصبحت مصر على استعداد لتقبل دعوة الحكيم الأفغاني ،ولولا هذا الاستعداد المصري لقضى على هذه الدعوة في مهدها ولأخفق هو في مصر كما أخفق في الآستانة ،حيث وجد أبوابها مغلقة أمامه ،فلقد سبقت مصر غيرها من الأمم الشرقية في التقدم العلمي والفكري والسياسي وجاءت عوامل الفساد الداخلي والتدخل الأجنبي لتضيف اليه تبرما وضيقا ولكن هذا الشعور ظل مكبوتا الى أن جاء جمال الدين الأفغاني فبذر فيها بذور الشجاعة في مواجهة الظلم وتغني بالحرية ،فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة من البلاد وخصوصا القاهرة٠

أغلب الظن ان تأليف الحزب الوطني كان باشارته [1] وانعقدت أول جلسة من جلسات الحزب الوطني برئاسته وكان عدد أعضاء الحزب ٣٠٠عضو بينما يقول البعض أن الذي أنشأه هو المحفل الوطني الماسوني [2] وليس الحزب الوطني الذي انضوى اليه محمد عبده على أمل مناصرة أعضائه الأوربيين والشرقيين لدعوته لما شاع عن مزاعم الماسون أنهم ينتصرون للحرية الأنسانية ولا ينقادون لدولهم في سياستها الشرقية ، فلما تبين له بطلان هذه المزاعم نفض يديه من المحافل عامة وممن بقي على الولاء لها في ذلك المحفل وفي غيره [3]

وفي الحق أن الظروف التي أحاطت بجمال الدين كانت مساعدة على ذلك ،فالحال في مصر كانت سيئة والنفوس جزعة من المراقبة الثنائية ونحوها ،واسماعيل نفسه يشجع نقد التدخل الأجنبي وان لم يشجع نقد شخصيته فكان الأمر أن البلاد أصبحت(مستودع بنزين)و جمال الدين (عود ثقاب) ،فلما أشعله اشتعلت البلاد ،ولولا هذه الظروف لخابت دعوته في مصر كما خابت في فارس وتركيا وأفغانستان من قبل [4]

وصفوة القول أن مقالات الأفغاني كانت تعتمد في هذه الأثناء على اثارة المصريين واحياء نفوسهم وكانت تهدف الى وحدة العالم الاسلامي كله تحت راية واحدة أي أنه كان من دعاة الجامعة الاسلامية.

---

(١)ميرزا لطف الله ، جمال الدين الأفغاني ، ج١ ص٥٣.
[2]الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، من مقدمة له منشورة في نص اعداد جريدة العروة الوثقى ، نشر بيروت سنة١٩٨٠م.
[3]عباس العقاد ، محمد عبده ، ص١٣٥-١٣٦.
[4]أحمد أمين ، زعماء الاصلاح ، ص٧٠.

نتائج حركة الأفغاني في مصر:

تلك هي الروح القوية التي كان يكتب بها الحكيم الأفغاني ،في الجرائد المصرية فأيقظ المصريين من ثباتهم العميق وقد ملوا الكرى بعد ضجعة ليل طويل ران فيه على قلوبهم الخضوع والخنوع فكان الأفغاني بهمته العالية هو صاحب الفضل في ازالة هذه الرواسب القديمة والأخذ بيد المصريين وتبصيرهم بحقوقهم ودفعهم الى المطالبة بها ،ثم نسج تلاميذه على منواله فكانوا بحق خير تربية أخرجتها مصر في عصرها الحديث ،وقامت بهم نهضة مجلس شورى النواب في أواخر أيام اسماعيل وأوائل عهد توفيق قامت بهم الثورة العرابية .

فالأفغاني بحق هو أبو النهضة الدستورية في مصر فقد أصبح أعضاء مجلس شورى النواب يدافعون عن حقوق الشعب في المجلس دون خوف ، ويطالبون بوضع دستور للبلاد يحفظ حقوق الشعب في وجه الحاكم المستبد ، وظهرت روح المعارضة واليقظة في مجلس شورى النواب على يد نواب نفخ فيهم الأفغاني مثل تلميذه عبد السلام المويلحي .

وكان الأفغاني سببا في النهضة السياسية في مصر ، وكان من مظاهر هذه النهضة نشاط الصحف السياسية وأقبال الناس عليها ، وتحول الأدباء من كتاب يتسولون حول موائد الحكام والأمراء الى نقاد يكتبون عن أحوال بلادهم ويطالبون بضرورة اصلاح أحوالها .

والأفغاني بحق هو أبو الثورة العرابية ، فعلى الرغم من أنه نفي من مصر الا أن تعاليمه وروحه بقيت في مصر وتركت أثرها في زعماء الشعب الذين قادوا الثورة العرابية ، فجمال الدين الأفغاني " هو من الوجة الروحية والفكرية أبو الثورة العرابية ، وكثير من أقطابها هم من تلاميذه أو مريديه،والثورة في ذاتها هى أستمرار للحركة السياسية التي كان لجمال الدين الفضل الكبير في ظهورها على عهد أسماعيل

غير أن الأجانب نجحوا في عزل اسماعيل سنة ١٨٧٩م الذي أتاح فرصة للأفغاني وللحركة الوطنية وبصر الناس بحقوقهم وضرورة مقاومة أطماع الغرب ، وتولى مكانه في الحكم أبنه الخديوي توفيق ، وعلى الرغم من أن توفيق كان يغشى حلقة الأفغاني وكان الأفغاني يؤمل فيه خيرا لو حكم مصر ، الا أنه انصاع للأجانب بعد توليته على مصر ، فقد أخافوه من عواقب دعوة الأفغانى وأثرها على حكمه ، لأن الأفغاني اتصل بضباط الجيش وبثهم من روحه ، فزادت هواجس الأجانب وتوفيق فأخرج الأفغاني من مصر وتم اخراجه ليلا في ليلة السادس من رمضان سنة ١٢٩٦هـ الموفق ٢٤من أغسطس ١٨٧٩م ولم يمكن من أخذ ثيابه وكتبه وحمل في عربة مغلقة الى محطة السكة الحديد ونقل في القطار تحت المراقبة الشديدة الى السويس واستقل سفينة وتم نفيه الى الهند ، ولم يكتف توفيق بهذا النفي بل أعلن على الناس بلاغا رسميا نشر في الوقائع المصرية حاول فيه تشويه سمعة الأفغاني فقال فيه : ((انه يسعى في الأرض بالفساد ، وانه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا))[1]

وكان نفي الأفغاني على هذا النحو غاية في القسوة والغدر وكان هذا البيان بما فيه من عبارات جارحة ملؤها الكذب والأفتراء مما لا يجدر بحكومة تشعر بشيء من الكرامة والحياء ، فهي قد نسبت اليه السعي في الأرض بالفساد ، ويعلم الله أنه لم يكن يسعي الا الى يقظة الشعب وتحرير مصر من ربقة الذل والعبودية .[2]

وبعد خروج الأفغاني من مصر تنازعته دول كثيرة غير أنه ذهب الى الهند وأقام في (حيدر آباد الدكن) بغية العمل لاتحاد المسلمين ، وحددت حكومة الهند الانجليزية اقامته في (كلكتا) حتى نهاية الحملة التي قامت بها لاحتلال مصر ١٨٨٢م ، ولما تم أحتلال الأنجليز لمصر سنة ١٨٨٢م سمحو له بمغادرة الهند الى أي مكان يشاء .

---

[1] انظر : نص البلاغ في جريدة الوقائع المصرية عدد ٣١من أغسطس١٨٧٩م وفي الأهرام عدد٢٨من أغسطس ١٨٧٩م.
[2] عبد الرحمن الرافعي ، عصر اسماعيل ، ج٢ ، ص١٣٦.

الأفغاني في باريس:

خرج الأفغاني من الهند الى اوربا غير ان الانجليز لم يغفلوا لحظة واحدة عن مراقبته في البلاد التي تنقل اليها في روسيا واسلامبول والهند ومصر وأفغانستان واستقر في باريس ثلاث سنوات من ١٨٨٣-١٨٨٥م وقابل فيها تلميذه الشيخ محمد عبده الذي نفي من مصر لاشتراكه في الثورة العرابية فأنشآ معا جمعية" العروة الوثقى " في ١٣٠١(١٨٨٣م) واصدرا جريدة ناطقة باسمها تسمى أيضا " العروة الوثقى " ، وكان هدف الجمعية والجريدة نشر الوعي السياسي في العالم الاسلامي من أجل وحدة المسلمين ومقاومة الانجليز الذين استحوذوا على كثير من بلاد العالم الاسلامي ،ومقاومة الاستعمار الغربي بشتى أشكاله ، وكانت الجريدة توزع مجانا الى كل جهات العالم الاسلامي [1]

لكن الانجليز منعوها وفرضوا غرامة مالية كبيرة على كل من توجد لديه وخافت الدول الأوربية الاستعمارية وأصابها ذعر شديد خوفا على اتحاد الدول الاسلامية ضدهم فأوقفت فرنسا صدور الجريدة بعد اصدار ثمانية عشر عددا منها .

ذهابه الى ايران :

وخرج من باريس سنة ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م) قاصدا جزيرة العرب لانشاء وحدة اسلامية غير ان شاه ايران (ناصر الدين شاه) عندما سمع بحركته وشهرته دعاه الى ايران فذهب الى ايران بدعوة الشاه ناصر الدين .

وفي ايران نصح الشاه بضرورة اصلاح الأوضاع في البلاد الايرانية فطلبه الشاه لكي يتقلد منصب رئيس الوزراء ورئاسة دار الشورى لكنه رفض وقال :((اني لم أطلب ولن أطلب الرئاسة في الدنيا أبدا ، ولم أكن أبغي غير تربية المسلمين ورقي الوطن)).

---

[1] ميرزا لطف الله ، جمال الدين الأفغاني ، ترجمة د. عبد النعيم حسنين ، مرجع سابق ،ج١ ص٦٢.

وكان السيد بصراحته المعهودة وجرأته المعروفة تتكلم في كل مجتمع ومجلس عن ضرورة الاصلاح ،والقيام في وجه الاستبداد ، دون خوف أو وجل ، الا أن تلك الكلمات النارية أزعجت بطانة السوء من الوزراء وبعض العلماء الماديين الذين يلوذون بالحاكم ليأكلوا من فتات مائدته ويستفيدون من جهل العوام ، فبادروا بخصومة الأفغاني وأخافوا الشاه بعد ميله للاصلاح من نفوذ الأفغاني ، وخاصة رئيس الوزراء(ميرزا علي أصغر خان) وقالوا للشاه ((ان جمال الدين لو مكث أربعة أيام أخرى في ظهران لأمكنه خلعك وجلس سلطانا على عرشك)) [١]

فتم اخراجه من البلاد وسافر الى روسيا حيث لبث فيها نحو عامين وتعلم اللغة الروسية ،وتباحث مع رجالها في أمر الاتحاد الاسلامي ضد بريطانيا .وأراد أن يستغل المنافسة القديمة بين الروس والانجليز لمصلحة المسلمين .

ثم سافر منها الى النمسا وفيها قابل الشاه ناصر الدين مرة أخرى فعرض عليه السفر الى ايران مرة أخرى ولكنه لم يوافق على هذه الدعوة بعد ان أخرج منها من قبل ، وقام بسفارة الى روسيا من طرف الشاه لمصلحة بلاده وعاد الى طهران في سنة ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) بعد أداء مهمته بنجاح .

لكن رجال الحاشية صوروا للشاه سوء العاقبة لأن الأفغاني لايسكت ويقوم بتوعية الناس بحقوقهم وربما قامت ثورة شعبية ضد الحكم ، وهنا مال الشاه لفكرة ابعاده عن البلاد فأرسل الى الأفغاني يقول : ان أكابر البلاد لا يرغبون في بقائه في طهران وعلى الفور تم اخراجه الى العراق في حراسة مشددة كانت تغيرفي كل مرحلة خوفا من ان يتأثروا بأقواله الحرة ذلك لأن كل من كان يجالسه مرة أو مرتين كان يفتن بحبه ويقع تحت تأثيره . كان ذلك سنة١٣٠٨هـ ١٨٩٠م)

[١]المرجع السابق ، ج١ ص٦٧.

غير انه اختفى في العراق وخشى الشاه أن يصل الى ايران وخشيت حكومته فأبرقت الى كل جهة أن يقبضوا عليه أينما وجد .

وكان قد وصل الى لندن وألقى خطبا مؤثرة في جالس الانجليز يفصل فيها مظالم الشاه ناصر الدين وحاشيته . وأصدر في لندن جريدة (ضياء الخافقين) سنة١٣٠٩هـ (١٨٩١م) بالعربية والانجليزية ولكن الانجليز عطلوها .

ومع أنه كان قوي البنية الا أن صحته بدأت تعتل نتيجة لما قاساه في رحلة المطاردة من ايران والعراق الى اوربا في جو الشتاء القارس ، مع ما تركت هذه الأحداث في قلبه من آلام لأنه يريد لقومه الحياة الحرة وهم يريدون له الموت كما قال الشاعر:

أريد حياته ويريد موتي .: عزيرك من خليلك من مراد

نهاية المطاف في تركيا :

وكان السلطان عبد الحميد بعد أن أحاطت بدولته الأطماع الأوربية بدأ يعمل من أجل الجامعة الاسلامية ووحدة المسلمين . فأرسل اليه في لندن بخطاب مع سفير تركيا في لندن يطلب منه السفر الى اسلامبول فأستفسر من السفير عن سبب هذه الدعوة فذكر له أن عبد الحميد يعتزم أن يؤسس بمعاونتكم ومساعدتكم الكريمة اتحادا بين الممالك الاسلامية ، ويرغب في الاستفادة من آرائكم في تدوين بعض القوانين التي هو بصددها . فسافر الى تركيا ووصلها سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) واستقر بها .

وعلى الرغم من أن السلطان قرر له مرتبا شهريا يبلغ مائتي ليرة وكان طعامه يعد كل يوم من المطبخ السلطاني والمائدة الملكية وأصبح أقرب المقربين الى السلطان الا أنه لم يترك الدعوة الصريحة الى الاصلاح فلم يعرف الخوف ولا الرهبة سبيلا الى قلبه لما جبل عليه من شجاعة واعتزاز بالنفس ولم يكف لحظة واحدة عن الاشاعة عن غرضه الأسمى في كل مكان من أجل الوحدة الاسلامية .

وفض رتبة "قاضي عسكر " الذي أنعم بها السلطان عليه ليشتري بها سكوته ورفض كسوتها المذهبة ، وقال لمن حملها اليه :

" قولوا لمولاكمالسلطان : ان جمال الدين يرى أن رتبة العلم هي أعلى الرتب[٢]

فكان أول من نادى بفكرة المؤتمر الاسلامي وأن تنتخب حكومة كل بلد اسلامي ممثلا لها في المؤتمر من أكبر العلماء فيها للأجتماع في اسلامبول عاصمة الدولة العثمانية لبحث قضايا العالم الاسلامي المهمة ، وعلى كل دولة احترام قرارات المؤتمر .

فان اعتدت دولة أوربية على بلد اسلامي يصدر المؤتمر الاسلامي الأعلى أمرا بالجهاد المقدس لكافة المسلمين . في العالم فينهضون لمحاربة تلك الدولة بقوة فضلا عن وقف العلاقات التجارية والاقتصادية معها . [١]

ولهذا حرر ما يقرب من ٥٠٠رسالة الى علماء فارس والبلاد العربية والهند وعلماء تركيا والمغرب العربي وسائر الأقاليم الاسلامية ولم تمض مدة حتى وصلت الردود بقبول الدعوة فسر السلطان عبد الحميد وهنأ الأفغاني على ما حصل من التوفيق على يديه ، لكن حاشية السلطان عبد الحميد خافت من عاقبة نفوذ الأفغاني ، كما نما الى علم ناصر الدين شاه معلومات مغلوطة بأن الأفغاني اتفق مع بعض الايرانين على تسليم ايران الى السلطان عبد الحميد . وقامت الحاشية العثمانية بتخويف السلطان عبد الحميد من نفوذ الأفغاني وخاصة أنهم أعلموه أنه على اتصال بعباس حلمي الثاني خديو مصر وادعوا زورا أن الأفغاني يعمل على تسليم الخلافة لعباس حلمي حاكم مصر .

ولذلك تمت مراقبة الأفغاني والقبض على أعوانه ومساعديه في فكرة المؤتمر الاسلامي ومصادرة ما معهم من مراسلات الى العالم الاسلامي ، وظل الأفغاني محدد الاقامة في منزله حتى توفي ، وذلك أنه لما قتل (ناصر الدين) على يد شخص له علاقة بالأفغاني (وهو ميرزا رضا) في١٧من ذي القعدة عام ١٣١٣هـ اعتبرت ايران الأفغاني مسئولا عن ذلك وطلبت تسليم الأفغاني اليها باعتباره ايرانيا فرفض عبد الحميد .

---

[٢]سليمان مظهر ،من مقال له بعنوان : "فيلسوف تحدى كل الملوك " مجلة العربي عدد ديسمبر ١٩٩٧م.

[١]ميرزا لطف الله ، مرجع سبق ذكره ، ج١ ، ص٨١.

لكن عملاء ايران وعلى رأسهم سفير ايران تمكنوا من وضع السم له ، وجاز الى ربه سنة١٨٩٧ودفن في اسلامبول بعد اقامتة فيها من ١٨٩٢-١٨٩٧ ، وقيل أنه أصيب بمرض السرطان في فمه .

لكن اسمه بقي حيا بالذكر الطيب [١] . فقد بذر بذور الحرية في قلوب الأحرار في مصر وايران واسلامبول والهند وأفغانستان ، فأثمرت حركات يقظة ضد الاستعمار الأجنبي والاستبداد الداخلي .

ولذلك فان تلميذه ورفيقه في الكفاح محمد عبده اتخذ من المصائب التي مني بها أستاذه على أيدي الأمراء والملوك حجة على ضعف الأمل فيهم ، ووجوب التحول بالجهود الى أممهم ، فقد شهر به خديو مصر ونفاه ، وعذبه شاه ايران وأهانه وطرده من بلاده على شر حال ، وأعرض عنه حكام الهند مجاملة للمستعمر واعتقله السلطان عبد الحميد في قفص من الذهب [١]

وقال عنه محمد عبده في هذا الصدد : ((ان السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة . وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن نترك السياسة ونذهب الى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ونعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا ، فلا تمضي عشر سنين الا ويكون عندنا عدد من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم والسير في الأرض لنشر الاصلاح المطلوب ، فينتشر أحسن الانتشار ، فقال : انما أنت مثبط)) . [٢]

---

(١)المرجع السابق ، ج١ ، ص٩٣-٩٥.
(١)عباس العقاد ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٠-١٤١.
(٢)محمد رشيد رضا ، تاريخ الامام ، ج١ ، ص ٨٩٤.

الفهرس